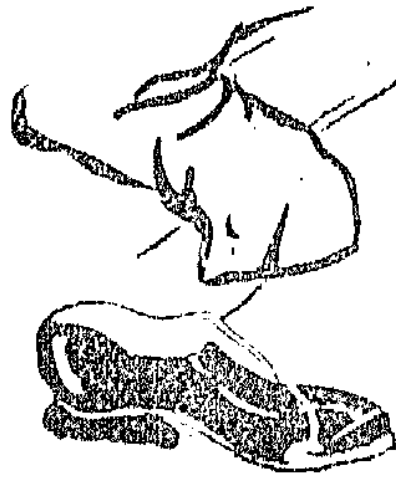




وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع
الأطفال أنفخ في الزمارة وأنا أرتدي
الردنجوت وقد شمرت — جدتي — أكمامه ،
وثبت ساق البنطلون ، وأخذت أنتقل
الهوينا بقدمي (ياق) في الحذاء ، وكأني
ألبس مركباً !!

فني ردينجوت ..

وسهلاً سعادة الباشا . . .

أهـمـر . . .

— أهلاً بك . . إزيك يا أستاذ . . .

— الحمد لله . . إلى الإسكندرية إن شاء الله ؟

— إن شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام

بالسكة الحديد . . فإلطائرة توفر كثيراً من الوقت .

— ولكن الأرض أضمن « أنل قدمي ظهر الأرض أنى »

— ياسيدى . . العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا تافهاً متقطعاً . . .

حديث لقاء عابر في قطار . . وكنا نجلس في عربة تسكيف

الهواء في القطار السريع المسافر إلى الإسكندرية يحيط بنا

جو من النخامة والأبهة يصعر الخد وينفخ الأوداج . ويملاً

بالكبرياء أشد الناس تواضعاً ، وينفخ بالاستقرائية

أحطهم قدراً وأوضعهم شأنًا .

واضطجعت في المقعد اللين الوثير ووضعت ساقاً على

ساق . . فقد كانت تلك هى أقل جلسة يمكن جلوسها في هذا

الجوال الفاخر ، ولا سيما أن الباشا محدثى كان قد اتخذ هذا الوضع

وعلق ساقاً على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر

ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لي أن من الخير — قبل أن أمعن في السرد —
أن أزيل من ذهن القارئ ما قد يكون علق بذهنه من
وهم خاطيء عن الباشا الذي نحن بصددده . فيظنه مما قلت عن
باشاويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال
الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالثقيل ولا الدعى ولا
المتعجرف .. على النقيض من ذلك كان نموذجاً للذكاء
واللطف وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبدالعزيز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال
المعروفين في البلد .. لا يزيد عمره على الخامسة والأربعين
وهو يملك عدة شركات مختلفة .. بينها بضع شركات
للأوتوبيس والدوبارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك
أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم
الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ،
وتألاً نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار إلى قدرتهم
ونبوغهم بالبنان .

وكننت أقدره مما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته
فلما لقيته زاد تقديري له .. لما رأيته من خفة دمه ودمائة
خلقه ...

وأخذت أرقبه وقد جلس في مقعده ووضع بين شفتيه
سيجاراً طويلاً . . . وتدلّت من صدريته سلسلة ذهبية . .
وبدا وجهه منتفخاً ، ووضع على عينيه منظاراً رقيقاً
ذا إطار ذهبي أنيق ، وداخلى من منظره إعجاب كثير . .
وقلت لنفسى : إن مثل هذا الرجل جدير بالاحترام . . فتد
كسب مركزه و ثرائه بجهده وذكائه . . وأن مخلوقاً موهوباً
مثله كان لابد أن يلقى مالاتى من نجاح .

وانحدر بصرى من وجهه إلى جسده . . إلى ساقيه . .
وقد وضع إحداهما فوق الأخرى . . فشمر بنطالونه
وانحسر عن جوربه الحريرى النايلون ، وجزء من ساقه
الجرداء السمراء ، وبدت لى قدمه صغيرة كقدم الطفل
وقد دسها فى حذاء (باللى) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات
خفيفة . . .

وظل الحديث يجرى بيننا متقطعاً . . سؤال من هنا . .
وجواب من هناك . حتى خطر لى أن أسأله عن قصة نجاحه .
وعن مظاهر النبوغ فى أطوار حياته . . طفولته . . وصباه
وشبابه . . إن حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درساً
نافعاً لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه
تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء

كأنها في ضيق . . ثم أبصرت بيده تمتد إلى كعب الحذاء فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكي تعطى للأصابع فرصة التحرر ثم تعود يده إلى مكانها من جيب صدر يته تاركة الحذاء يتأرجح معلقاً على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رآني أرقب عملية نزع الحذاء ثم تتم معتذراً :

— لامؤاخذه . . أحب أن أريح قدمي قليلا . . إن الحذاء ضيق بعض الشيء .

— العفو ياسعادة الباشا . . خذ حريتك .

— إني دائماً ألبس حذاء ضيقاً . . فليس أبغض إلى من الحذاء المتسع . . إنها عادة قديمة . . قديمة جداً .

ثم انطلقت منه قهقهة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

— زمن ! . .

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عادته القديمة في كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن ببعض الإسهاب . . ولكن وجدته يصمت ، وسمعت بدلاً من صوته . . صوت شخير قد علا بجواره .

ونظرت إلى صاحب الشخير فإذا به عجوز قد راح في سنة من النوم ، ورأيت الباشا ينظر إليه ثم يستغرق في الضحك

مرة أخرى ويعود إلى لهجته الساخرة قائلاً :

— دنيا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهي بعض علامات الضيق الناتجة من إغراقه في الأقوال المهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن الزمن . . فقد بدأ يفصح قائلاً :

— الحذاء المتسع ، وما أدراك ما الحذاء المتسع . . لقد كان مصدر شقائي في باكورة الحياة . . كان أكبر مصيبة رزئت بها .

وعاد الرجل إلى الضحك . فلم أملك سوى أن أستغرق معه في الضحك . . حتى بدأ يتمالك نفسه قائلاً :

— كان ذلك منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، وكنا نقطن وقتذاك بالدرب الأحمر في حارة الروم . . وقد ضمنا جميعاً بيت كبير حوى جميع أفراد العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير — والد أُمي — تاجراً بالغورية . . يعيش من أولاده خالي الأكبر وخالي الأصغر وأُمي . . وكان أبي قد توفاه الله . . . وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتي من الخال الأصغر — خالي طه — وهو أعقل أفراد العائلة وأكثرها اتزاناً أن يتولى شراء ملابس العيد لي .

وكان لخالي طه — من يومه — نظريات رفيعة في فن الاقتصاد ويبدو لي أنه قد أبدى إلا أن يطبق نظرياته الرفيعة — التي كانت مداركنا أعجز من أن تفهمها وقتذاك — في عملية شراء ملابس المتواضعة فقد خرج إلى السوق يحول جولة بين الغورية والموسكى ليلتاعلى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول أن يصطحبني حتى لأعرقل حركته . . وخاصة أنه لم يجد هناك مبرراً لعملية التياس ، فقد كان يعرف مقاسي بالنظر . واستمر ينتقل من دكان إلى دكان . . دون أن يجد البضاعة الملائمة أو السعر الملائم . . حتى وقف فجأة أمام بذلة معلقة في أحد الدكاكين .

عجيب . . ! هذا سعر لا يصدق . . إنها صفقة هائلة ! كيف يمكن هذا . . لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ السعر . . ليدخل إذن ، ويتحقق بنفسه . ودخل الخانوت وسأل صاحبه . . فأجابه أن السعر مضبوط لا لبس فيه ولا خطأ .

مدهش . . ! خمسة وسبعون قرشاً لبذلة رديجوت ! . لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه . . . وأنه لهذا أبدى استلامها ، وأنه يعرضها للبيع . خمسة وسبعون قرشاً . . ! يا بلاش ! .

إنها صفقة هائلة . . لا بد من شرائها .

إنها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة . . ولكن
لا شك أنه يمكن استعمالها . . ولا يغرب عن البال أنني صبي
وفى دور النمو ، وأن حجمى يتزايد . . وقد أنمو فى العام
القادم بفئة . . فتصبح البدلة محبوكة على .

ولسكنها . . رديجوت ، وأنا طفل !

وأى ضير فى ذلك ؟ هل هناك قانون يحرم على الأطفال
لبس الرديجوت ؟ .

لا . . لا . . يجب ألا يتردد فى شرائها .

وهكذا أقدم على شرائها . . لمجرد أنها فى حد ذاتها
صفقة رابحة . . بصرف النظر عن صاحب البدلة . . .
وصلاحيته له .

أجل . . إننى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائماً للبدلة . .
لأنها بدلة متينة ورخيصة ، وحرام أن تضيع من يدنا . . .
وهكذا تم شراء البدلة . . أما الحذاء فقد كانت نظريته
فيه لا تقبل المجادلة .

لقد كان يعتقد أن قدمى دائمة النمو ، وأن حذائى
الجديد يجب أن يكون أكبر بعدة نمر حتى لا يضيق على
ويمصيح غير صالح للاستعمال قبل أن يبلى . !

وبمثل هذه النظرية ابتاع لى الحذاء .

وعاد إلى البيت يحمل الرديجوت والحذاء الكبير .
لقيته جدتي مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما
أحضر . . فأنبأها بلمهجة الواثق إن هذا خير ما يصلح لى .
وكان من العبت مناقشته ، ولم أكن أنا نفسى — ككل
طفل — أهتم بنوع الملابس أو مقاسها ، بقدر ما أهتم بها
كأشياء جديدة . وكانت فرحتى بها ولهفتى على ارتدائها
تجعلنى أرفض أية محاولة لإرجاعها أو مناقشة فى عدم
صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد . . وخرجت مع الأطفال أنفخ
فى الزمارة وأنا أرتدى الرديجوت وقد شمريت — جدتي —
أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت انتقل الهوينا بقدمى
« يلق » فى الحذاء ، وكأنى ألبس مركباً .

والمدهش أن الله قد أبى أن يحقق نظرية خالى فى مسألة
نموى . . فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأنا
أهرول فى البذلة والحذاء ، وأقسم ثلاثاً أننى لو عثرت اليوم
على الحذاء لعامت فيه قدماى . . لقد كان خالى بعيد النظر
جداً . . أبعد مما استطعت أنا الوصول إليه .

وكانت البذلة والحذاء أمراً محتملاً فى العيد . . لاسيما

أن جدتهما وفرحتي بهما لم تذهب بعد ، وأن اختيالي لم يكن يتعدى الحارة وأهل الحارة . ولكن لم تسكد تنتهي الأجازة وأذهب إلى المدرسة . . حتى بدأت أثير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجني الضجة . . فقد كنت — من يومى — مخلوقاً مرحاً « هليلى » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الردنجوت مبعثاً للخبلى أو لضيقى . . بل كنت أشترك مع التلاميذ فى نكاتهم على ، أردھا تارة وأحتملھا تارة أخرى ، وأنا فى الحاليتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن احتمل الردنجوت . . أما الخذاء فقد كان مصابى الأكبر ، وخاصة فى حصة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس . . أى بعد فسحة الغداء ، وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابريمى . . كناية عن أنه جاف مقدد مقلحف كالبلح الابريمى ، ولم تكن العلاقة بينى وبين الشيخ على بطيبة فى يوم من الأيام . . فقد كان دائماً يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير فى حياته تلميذاً أكثر منى غباء . وكان ينصحنى دائماً بأن أقلع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلّمھا ، لأنه لا أمل لى قط فى النجاح .

ولم يكن الشيخ بمتجن على فقد كنت فعلاً مخلوقاً غيبياً ،
وخاصة في العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئاً عن
النحو والصرف والإعراب لسبب واحد . . هو أنى لم
أستطع البقاء مستيقظاً في حصة واحدة من حصص الشيخ
على . . فقد كانت حصصه تعقب الغداء مباشرة وكان الجهد
الذى أبذله في الفسحة والشرامة التى أتناول بها الطعام . . .
تجعل استيقاظى في الحصة الخامسة أمراً مستحيلاً .
وكان نومي — قبل أن ارتدى الحذاء اللعين — مسألة
مضمونة مأمونة . . أما بعد ارتدائه . . فقد أضحت عملية
مفضوحة مكشوفة .

كان جرس الفسحة يدق فندخل الفصول . . ويجلس
كل منا في مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعداً خاصاً في الحصة
الخامسة . . هو آخر مقعد في ركن الفصل ، وكنت أجلس
فيه آمناً مطمئناً . . يحجبني عن عين الشيخ على جسد التلميذ
الضخم الجالس أمامى . . الذى كان يستر جسدى
الضئيل تماماً .

ويبدأ الشيخ على الشرح . . بصوته الرفيع ذى النغمة
الواحدة التى لا تتغير . . والى كان لها تأثير مهدىء على
أعصابى ، والى كانت تعادل وقتذاك حفنة من الأقراص

المشوّمة ، وأحاول عبثاً أن أتتبع حديث الرجل عن البدل
والخال . . ولكن لا تمر برهة حتى أكون قد سبحت مع
الملائكة في سبات عميق .

وكانت عادتي — وما زالت — عندما أنام وأنا جالس
أن أتخذ وضعاً مريحاً . . بوضعي ساقاً على ساق .
ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزاني الخال العزيز . .
بالحذاء إياه .

لقد وضعت — كعادتي — ساقاً على ساق ، ورحمت
في سباتي . . أنعم بنومة هادئة عندما سمعت في الفصل ضجة
مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهادي .
وفزع الشيخ على وصاح نائراً :
— ما هذا ؟ .

وأجابه الفصل كله في نفس واحد :

— حذاء عبدالعزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لي جفن في درس عربي .
فقد كنت لا أكاد أحس بالخنول وأستسلم للنعاس واضعاً
ساقاً على ساق . . حتى ينزلق الحذاء من قدمي ويهوى إلى
الأرض في ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على في حاجة بعد
ذلك لأن يسأل عن سر الضجة . . بل كان يصيح حانقاً :



— أخرج بره يا واد يا عمران يا ابن الكلب .

ثم يهجم على ويعدو ورأى وأنا ممسك بالحذاء في يدي ،
وأنطلق هارباً من الفصل ، والتلاميذ يضحجون بالضحك
والأستاذ يضحك بالشتائم ويصيح :

— أقسم إنك لن تفلح يا غبي يا بليد . . هذا شاربى إن
كنت تفلح . . سأذكرك بقولى هذا فى المستقيل . . عندما
تصبح كسارياً ، أو عرجياً . ! هذه أشكال لا تنفع فى
المدارس .

ولم يكذ عمران باشا ينتهى من حديثه حتى لمحت حذاءه
(البالى) الوجيه ينزلق من قدمه ويهوى إلى الأرض ،
ورغم أن الضجة التى أحدثها الحذاء عندما اصطدم بالأرض
كانت ضجة خافتة إلا أنها كانت كافية لإيقاظ الشيخ المغرق
فى نومه فى المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه فى فزع . .
وبحركة لا إرادية وجدته ينحنى فيتناول الحذاء ، ويسلمه إلى
عمران باشا قائلاً فى أدب :

— اتفضل ياسعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول فى تواضع :

— العفو ياسيدي العفو .

وقبل أن يعود العجوز إلى سباته رأيت الباشا يقوم
بواجب التعريف بيننا . فيشير بيده إلى ثم إلى الشيخ قائلاً :

— الاستاذ الشيخ على الأبريمي . .

وتمسكتني دهشة شديدة . . أهذا إذاً هو الشيخ
الإبريمي . مدير العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يغالب النعاس . . فاستغرق
في نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمماً حديثه متجاوزاً عن
علامات الدهشة التي بدت على وجهي :

— لقد مرّت الأيام وانتقلت من مدرسة إلى مدرسة ،
والشيخ على مازال مدرساً للغة العربية ، وأصبحت مهندساً
وهو ما زال مدرساً للغة العربية ، وتوظفت في الحكومة
واستقلت من الحكومة وهو ما زال مدرساً للغة العربية ،
وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو مازال مدرساً للغة
العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل على مرحباً مهلاً مكبراً ،
وصاح بي :

— ماشاء الله . ماشاء الله . . من يومك وانت فالح . .
هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أتنبأ لك بهذا

الفلاح . أتذكر يوم قلت لك أنني سأذكرك بما ستصبح عليه
مستقبلاً ؟ .

— أذكر يا شيخ علي . . أذكر جيداً .
وأنبأني أنه سيحال إلى المعاش بعد بضعة أيام بلا معاش ،
بعد خدمة وزارة المعارف أربعين عاماً . . فقلت له :
— ربنا تاب عليك من التدريس يا شيخ علي . . تحب
أشوف لك وظيفة في الشركة ؟ .
— ياريت . . !

وهكذا ختم الشيخ علي الابريجي مطافه المدرسي . .
بوظيفة في شركة الدوبارة .
وصمت الباشا برهة . . فسأله :
— وماذا يعمل الشيخ في الشركة ؟ .
— لا شيء ، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما رأيت ؟
يسهيني ويرفع الحذاء الساقط . . ! رحم الله العلم والتدريس
في أرض الكنانة !

